ـ « لتلعن هذه العجوز الحيزبون . لتلعن الف مرة ومرة .. لماذا تهتم ببشيرة كل هذا الاهتمام وتهملني اناهكذا ؟ . وبماذا تفضلني بشيرة ؟ . الانها انثى مثلها . اذن لماذا لا يهتم بي نوح ما دام ذكرا مثلي ؟ !!

كان « غراب » واقفا على طرف دن خشبي فارغ من دنان عصير العنب في ركن منعزل من السفينة يحدث نفسه بهذا ، وينظر بحنق الى زوجة نوح تربت بيدها على ريش الحمامة وتداعبها بحنان ..

وصاح نوح من طرف السفينة الاخر وهو يسد احد الشقوق بالقير: يا غراب .. تقدم . وقال غراب بعد ان غادر طرف الدن ووقف امام نوح : اوامر جديدة اليس كذلك ؟ .

ـ انت لسانك سليط دائما .. لقد اخطأت عندما اخذتك معي في السفينة ، كان علي ان اتركك تذهب ضحية الطوفان ..

ـ كنت مأمورا بأخذي ولم تكن مخيرا ..

ـ هذا صحيح .. اسكت الان .. انا لا احب سلاطة لسانك .

ـ ولماذا دعوتني اذن ؟

ـ ان الشمس الاولى آذنت بالشروق . سأطلقك الان من هذه الكوة ، وستخرج الى ارض الوطن وتأتيني بالاخبار .

ـ ولكن ....

ـ لا تجادلني .. هيا نفذ الاوامر ..

ـ سأنفذها . فانا لست مخيرا في فعل ما اشاء . مثلك تماما .

ـ لا احب الثرثرة ياغراب . هيا . نفذ اوامري .

ـ والى اين اذهب ؟ . ان ارض الوطن وسيعة يا سيدي .

ـ اذهب الى اي مكان فيه ..

ـ هذا احراج يا سيدي نوح ..

ـ قلت لك اذهب .. اذهب . اذهب الى ابعد مكان . الى الحسكة مثلا .

وامسك نوح بـ (غراب) من ذيله ، وفتح كوة عالية في جدار السفينة واطلقه منها ، فطار هذا بعد ان القى نظرة عجلى على المكان الذي تجلس فيه زوجة نوح ، وكانت لا تزال تداعب بشيرة وهي تربت على ريشها .

غابت الشمس الاولى ، وعاد الغراب الى السفينة فتلقفته عند باب الكوة يد قاسية عرف انها يد نوح الذي فاجأه بالسؤال قبل ان يلتقط انفاسه ويستريح من عناء الطريق : هل الاخبار سارة ؟ .

ـ ماذا تتوقع ان تكون ؟

ـ حتى ولو كانت سارة ستنقلب نعوة عندما تنقلها ..

ـ انت تظلمني يا سيدي ، والذنب ليس ذنبي ، لعل الشمس الاولى شمس شريرة ..

ـ لا اريد الثرثرة .. فصل لي الاخبار ..

ـ ولكنها لا تسر .

ـ ولكني اريد ان اسمعها ..

ـ في الواقع ليس في الحسكة اخبار كثيرة . فهي بلدة صغيرة ينام اهلها مبكرين ، وقد وصلتها في الضحى ، وكنت تعبا فحططت على سطح دار عرفت انها مدرسة عندما رأيت التلاميذ يخرجون الى الباحة .. هل رأيت السنونو ؟ فصاح نوح غاضبا : وما شأن السنونو في الحديث ؟ ..

فرد غراب : كان التلاميذ كجماعات السنونو تماما ، وشغلت بهم عن الذهاب الى اي مكان اخر ..

ـ وهل ارسلتك للتفرج على التلاميذ ؟ .

ـ كان منظرهم جميلا يا سيدي ، لاسيما عندما انتظموا صفوفا امام الغرف ذات الابواب الخضر وهم يرددون بصوت واحد صلاة استطعت ان احفظها ..

ـ وماذا كانوا يقولون ؟

ـ ابانا الذي في السموات .. ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك . لتكن مشيئتك . كما في السماء كذلك على الارض .. اعطنا خبزنا ، كفاف يومنا ، واغفر لنا ذنوبنا وخطايانا كما نغفر لمن اساء الينا ، ولا تدخلنا في التجربة .

ـ اهذا كل ما في الامر ؟ ..

ـ اليست صلاة جميلة ؟ ...

ـ انها تريح النفس ، ولكن لم افهم منك شيئا عن الحياة الراهنة في الحسكة .

ـ نسيت ان اقول لك انني وقفت على شباك الصف الثالث من المدرسة أنصت الى ما يدور بين التلاميذ والاستاذ

ـ وماذا كان يدور ؟ .

ـ مؤامرة ..

ـ مؤامرة ؟ ..

ـ اجل .. مؤامرة . كان الاستاذ يتآمر على المسلمين ! .

ـ هل تهذي ؟ .

ـ صحيح ان مشقة السفر قد هدت حيلي ، ولكن قواي العقلية لا تزال كاملة .

ـ افصح .. ماذا تقصد ؟ .

ـ الاستاذ كان (سرجان) فرنسيا ..

ـ وهل مهمة العسكريين التدريس في المدارس ؟ .

ـ الم اقل لك انها مؤامرة ؟ .

ـ اكمل حديثك ..

وتابع غراب : كان السرجان يعلم التلاميذ اللغة الفرنسية .. ثم عاد يتكلم بلغة عربية ركيكة وهو يحاول ان يومي الى عقولهم الغريرة ـ وكلهم من المسيحيين ـ بأن المسلمين كانو سيذبحونهم لولا وجود الفرنسيين ، وبأنهم سيفعلون ذلك اذا ما خرج الفرنسيون من البلاد . تصور يا سيدي نوح ، كان السرجان وهو يتكلم قد جعل رسغ احدى يديه عنق خروف ، وجعل سيف يده الاخرى سكينا ، ويروح يمرر سيف يده على رسغ اليد الاخرى وهو يقول : بعدين .. نهنا بيروخ موسلمان .. يعمل هيك » ! .

ـ حقير ..

ـ لقد نال جزاءه يا سيدي ..

ـ ماذا تقول ؟ ..

ـ لقد نقفت انفه بحجر ، فصاح غاضبا وسحب مسدسه واطلقه .

ولولا ان الغضب جعل يده ترتجف وتخطيء الهدف لكنت مرتاحا الان من ثرثرتي ..

ـ ولكن كيف يفعل هذا ذلك السرجان ؟ . كيف يسمم عقـــول هؤلاء الاطفال ؟ .

ـ يظهر ان تربيته البيتية ناقصة يا سيدي ..

ـ اصمت ، واذهب الى مكانك .. انك بشير سوء دائما .

وطار غراب ثم حط على حافة الدن الخشبي وهو يخاطب نفسه : كم انا حزين .. ان نوحا وزوجته ، وكل من في السفينة .. كـــل هؤلاء يبخلون علي بالاسم الذي اتمناه . قلت لهم أنني مستعد لان اتخلى عن طعامي عدة ايام في سبيل ان يطلقوا علي اسم بشير كما اطلقـــوا على الحمامة اسم بشيرة ، ولكن واحدا فيهم لم يحقق امنيتي ، صحيح ان نوحا يقول لي انك بشير .. ولكنه يتبع الكلمة بكلمـــة (ســوء) .. آه . كم انا حزين ، ومتألم . وبـدأت الشمس الثـانية بالشروق . وامسك نوح بغراب من جديد .. وفتح كوة عالية في جدار الســفينة واطلقه منها ، فطار غراب ثم عاد فحط على طرف الكوة ينقر خشبها ، وهرول اليه نوح حانقا يسأل : ماذا تريد ؟؟

فصاح غراب من مكانه : لم تحدد لي المكان الذي يجب ان اذهب اليه..

فصاح نوح بدوره : اذهب الى حيث تشاء .. المهم الا تخرج عـــن حدود الوطن ..

وغابت الشمس الثانية وعاد غراب يقول : العينان يا سيدي نوح .. العينان وحدهما ، وكل الالق الذي يشع منها ، والفرحة الصافية .. من اجلهما لم يشرب حسين القهوة .. وظلت يد الساقي ممـــدودة بالفنجان لحظات ، حتى اذا اشار هو بالرفض دون ان يرفـع رأسه ، ارتفعت اليد الممدودة تقلب فنجان القهوة الى حلق حامله الساقـي بينما تسمرت العيون على وجه الشيخ جاسم بتوجس ، وقـلق ، وأمـل ...

فصاح نوح : ماذا تقول يا غراب ؟.. ما هذا الهذيان ؟

ـ انا لا اهذي يا سيدي .. انا اروي لك واقع حياة حسين احد افراد قبيلة من قبائل بادية الفرات ..

ـ ولكن اسلوبك في التعبير جديد ، وغريب

ـ انه كاسلوب الادباء.. اليس كذلك ؟؟

ـ حسنا .. تابع .. ما هي قصة حسين هذا ؟

ـ عندما وصلت حديد الشباك المطل على ربعة بيت مختار القرية كان حسين ينكش تبنة في الارض وقد تحلق حوله كل رجال القريـة بينما تصدر الشيخ جاسم المكان .. كان حسين ينتظر هذه اللحظـة منذ عشر سنوات .. اجل يا سيدي ، عشر سنوات فـي انتظـار كلمة من الشيخ ..

انت لا تعرف الشيخ جاسم يا سيدي .. اما انا فقد عرفتـه .. التقطت اخباره من افواه افراد قبيلته .. انه يضع النهايات للامـور والمشكلات بارادة اله قادر ، ويأخذ من الفلاحين ثمانين بالمئة مـــن الغلال التي يجنونها في اخر الموسم بعد تعب سنة كاملة .. ولا احـد يعترض من افراد القبيلة كلها .. لا يفكر احد في الاعتراض او يجرؤ عليه .. كلهم يخافون سطوته وفلقه الذي يشد ارجلهم اليه ويجلدهم بلا رحمة .. حتى (ابو محمد) رئيس مخفر الدرك يقف امامـــه باحترام وخوف ..

وفوق كل هذا فان الشيخ يقولون عنه انه يعرف كل شيء ، يجلس مع النواب في البرلمان ، ويناقش الوزراء ، ويصلي مع رئيس الجمهورية يوم العيد ، وله نفوذ كبير لدى دوائر الحكومة .. أخرج محمد السحل احد رجال قبيلته ، من السجن بعد شهر واحد من سجنه ، كان محمـد قد قتل رجلا ، غيره ينال الاعدام او السجن الطويل جزاء مثـــل هذه الجريمة .

العينان وحدهما يا سيدي نوح .. وكل الالق الذي يشع منهمـا والفرحة الصافية .. من اجلها لم يشرب حسين القهوة ، فالعادة فـي القبيلة ان الذي يقصد الشيخ في حاجة لا يشرب القهوة التي يقدمهـا له الساقي ومعنى هذا انه يريد من الشيخ ان يحقق له طلبه .. هل عرفت يا سيدي لماذا لم يشرب القهوة .. كان يريد ان يرضى الشيخ جاسم .. ان يطلق كلمته الاخيرة ، ان يمنح السعادة لقلبين .

ولكنه قال : اسمع يا حسين .. انت ابن القبيلة ، شجاع ونشيط، ونحن نقدر فيك هذا ، ولكن ما تطلبه مستحيل ، ولا اريدك بعـــد اليوم ان تفتح هذه السيرة ، والا ليس امامك الا الفلق ، وابنتـي رابعة قد وعدت بها الشيخ زرقان .

جمدت اصبع حسين التي كانت تنكش التبنة ، واطرق اكثر الـى الارض ، وقد لحظت الدم قد احتقن في اذنيه .. والتفت الشيـخ الى رجل القرية يقول : اسمعوا يا جماعة .. لا شك ان اكثركم يعلـم ان حسين يحاول ان يتطاول طامعا في الزواج من ابنتي رابعة .. وقد حذرته مرارا من الكلام في هذا الموضوع فلم يرعو .. ولكي ابرهـــن لكم عن كرمي معه سأنذره اخر انذار امامكم .. وبعد ذلك ليـــس امامـــه الا الفلق او رصاصة تخمد انفاسه القذرة .

ونفض الشيخ عباءته وهب واقفا ، فهب معه الجميع ، ثم غـــادر الربعة الى سيارة تنتظره في الخارج ، فصعد اليها وانطلقت بـــه تنهب الارض وتثير خلفها عاصفة من غبار .

وتهامس الرجال : اننا نعرف حسين يا جماعة .. نعرفه جيـــدا ، الم يقف في وجه الشيخ اكثر من مرة يرد على اوامره الجائـــرة باعتداد وتحد ؟ . الم يصفع عبد الشيخ عندما حاول ان يأخذ منـــه في موسم القطن الماضي (شاول)من القطن ؟ ..

وقال واحد منهم : ولكن لماذا جلس اليوم هذه الجلسة الذليلـــة امام الشيخ ؟ فاجاب اخر كهل : انه الحب يا محمود .. يذل حتـى الشيوخ والامراء

ودوت صفعة قوية احمر له خد الكهل واذنه ، ولكنه لم يجرؤ على ردها لحسين الذي شفع صفعته بنظرة حنق صارمة ثم غادر المكـان الى بيته في اخر الطرف الغربي من القرية ..

وقال شيخ حسن : هذه اول ليلة ، منذ عشر سنوات ، ستنام فيهـا القرية دون ان يرسل حسين في سكونها الحان ربابه الحزين الـذي كان يبثه شكوى قلبه كلما تذكر رابعة ..

وتابعت انا يا سيدي الكلام اخاطب نفسي : .. وكلما ارتسمـت امامه في ظلام غرفته الطينية صورة عيني رابعة ، وكـل الالق الـذي يشع منهما ، والفرحة الصافية .

وقد خفت ان يدركني الليل فاتيت مسرعا الى السفينة وانا اعلـم جيدا ان حسين لن ينام هذه الليلة ، سينداح شعوره في دوامة هائلة من الافكار تقفز احيانا بسرعة جنونية ، واحيانا تدور حول نفسهـــا ثم لا تلبث ان تهدأ ليطل منها وجه الشيخ جاسم ينفعل بالغضـــب وهو يقول : لا اريدك بعد اليوم ان تفتح هذه السيرة ، والا ليس امامك الا الفلق ، وابنتيرابعة قد وعدت بها الشيخ زرقان .

ـ ولكن كيف وقفت على كل هذه التفاصيل في يوم واحد يا غراب ؟ اخشى ان تكون مبالغا في كلامك ! .

ـ ولماذا الظن يا سيدي ؟ .

ـ لانه ليس من المعقول ان يكون الشيخ في القبيلـــة بهـذا النفوذ ..

ـ يظهر انك نسيت احوال الوطن منذ ان ركبت السفينة .. انهـا الحقيقة يا سيدي .. الحقيقة المؤلمة ، ولم اقص عليك غير الحقيقـة. صحيح انني استعرت من الادباء طريقة ادائهم الفنية في التعبير ولكن لم استعر منهم خيالهم الواسع الذي يحلق في كل سماء .

***

وبدأت الشمس الثالثة بالشروق .. وامسك نوح بغراب مـــن جديد وفتح كوة عالية في جدار السفينة واطلقه منها ، فطار غـراب قليلا ثم عاد فحط على طرف الكوة ينقر خشبها .. وهرول اليه نـوح حانقا يسأل : ماذا تريد ؟ فصاح غراب من مكانه : لم تحدد لـــي المكان الذي يجب ان اذهب اليه هذه المرة ..

فصاح نوح : كل مرة تعيد هذا السؤال ؟ . اذهب الى حيث تشاء من ارض الوطن .

ـ هل اذهب الى المدينة الفيحاء ؟ .

ـ اية مدينة فيحاء هذه ؟ .

ـ دمشق الفيحاء .. العاصمة .. الا تعرفها ! .

ـ وكيف لا اعرفها يا مغفل ؟ . اذهب اليها ، ولكن اياك ان تنشغل بنسائها الجميلات عن مهمتك . .

ـ انت تسيء الظن دائما يا سيدي ..

ـ ماذا قلت ؟ ..

ـ لا شيء .. لا شيء يا سيدي .. الى اللقاء ..

وغابت الشمس الثالثة ولم يعد غراب .. وبدأ نوح يروح ويجيء في السفينة بحالة قلق . وكانت زوجه العجوز تداعب ريش الحمامة بشيرة ولما لحظت ، حالة زوجها قالت له : لا تقلق يا نوح .. لا بد ان يعود !.

ـ ولكن الشمس غابت .. وليس من عادته ان يتأخر بعد هذا الموعد ..

ـ قد تكون مهمته هذه المرة قد شغلته ..

ـ بل قولي نساء دمشق الجميلات ..

ـ ولكن (غراب) عاقل . هادىء . ثم ليس جميلا .

ـ ربما سرق ليرة ذهبية قبل ان يذهب .. وهذا يكفي . هل فهمت قصدي ؟ .

ـ فهمت ، ولكني اقول لك مرة ثانية يجب الا تسيء الظن بغراب . انه مطيع ، وطيب ..

ـ واذا لم يحضر حتى الصباح ؟ .

ـ حجة الغائب في يده ! .

ـ سأدق عنقه ان تأخر اكثر من نصف ساعة أخرى ..

وصاح غراب من خلف دن عصير العنب : لن امكنك من عنقي يا سيدي ..

فصرخ نوح : انت هنا ؟ متى اتيت . وكيف دخلت ؟ . ولماذا اختبأت هنا ؟ .

ـ اتيت قبل الغياب،وكانت الكوة مفتوحة فدخلت ، واردت ان اعرف محبي من عدوي ، فاختبأت خلف البرميل ..

ـ وماذا سمعت ؟ .

ـ يكفي انني سمعت جملتك الاخيرة ! .

ـ كنت اقول هذا على سبيل المزاح ..

ـ ولكنه مزاح ثقيل .. اقسم لك على ذلك ..

ـ هل عدت الى الثرثرة ؟ . قل لي . هل ذهبت الى دمشق ؟

ـ دمشق جميلة يا سيدي .. جنة .. ولكن ..

وسكت غراب فصاح به نوح : ولكن .. ماذا ؟ . قل !

ـ الحالة فيها لا تسر الا العدو ..

ـ وكيف ذلك .. افصح .

ـ لم اتجول فيها كلها ، فالوقت ضيق كما تعرف ، ولكني عرفت ان الصحافة فيها مأجورة ، رخيصة ، والصحافة عنوان حياة الشعب يا سيدي ..

ـ .. اكمل ..

ـ زرت ادارة احدى الصحف .. كان صاحب الصحيفة غائبا ، وكان في الادارة محرران وسكرتيرة وصبي صغير .. هل اتكلم بلغة الادباء يا سيدي ؟ .

ـ تكلم بأية لغة تريد .. المهم ان افهم ماذا تقول ..

ـ التقطيبة يا سيدي .. كانها لعنة اسطورية خالدة ، مرتسمة على وجه عارف محرر السياسة الخارجية في الجريدة ، التقطيبة نفسها مرتسمة على وجه زميله عدنان .. اما سميحة ـ السكرتيرة ـ فغير عابئة ولا مهتمة ، اصلحت زينتها في ساعة واحدة اربع مرات ، وكانت تعود في كل مرة من غرفة التواليت لتستلقي بارتياح على الكرسي العريض في غرفة صاحب الجريدة تتصفح المجلات المصورة .

وكان هذا لا يغيظ عدنان منها قدر ما يغيظه الاعلان عن عدم اهتمامها باطلاقها ضحكة ساخرة بين حين واخر ترن في ارجاء المكتب كلما قرأت املوحة او استقرت عيناها ـ كانتا جملتين يا سيدي ـ على خبر يحمل خلف سطوره معنى لمفارقة لطيفة ..

اما محمد ، الصبي الصغير الذي يعمل خادما في الجريدة ، فنائم على المقعد الجلدي الذي قرب الباب ، غير مهتم بالذباب الذي يحوم حول وجهه ويقف على انفه وعينيه ، ولماذا لا ينام ما دامت الجريدة لن تصدر وصاحبها يتنقل بين كباريهات طهران ، وجو آب الثقيل لا يبعث في الجسد اي نوع من النشاط ؟ .

كان صاحب الجريدة يا سيدي قد ترك جريدته وسافر الى ايران ليتفق مع بعض الجهات هناك على ان يقوم بدعاية ايجابية لهم في دمشق لقاء مبلغ معين من المال بعد ان قامت تظاهرات ضدهم في كل انحاء الوطن .. ذهب وترك محرري الجريدة وعمالها بدون مال .. ولهذا رايتهم في حالة يرثى لها ..

وقال عدنان مخاطبا زميله : وبعد . فماذا نفعل يا عارف ؟

فاجاب عارف : للمرة السبعين تسألني هذا السؤال خلال اربع ساعات ماذا نفعل ؟ . ومن قال لك ان الجواب في جعبتي ؟ ارسل له برقية .

قال عدنان : لا فائدة .. نحن نريد حلا عاجلا .. يجب ان تصدر الجريدة باي ثمن . .

قال عارف : ما علينا اذن سوى الانتظار ..

وتساءل عدنان : وهل الانتظار هو اسرع الحلول ؟ هل تدري انني صرفت اليوم اخر ليرة كانت معي ؟.

فرد عارف : وهل تدري ان ابا ابراهيم السمان رفض ان يعطيني علبة دخان ، وقال انه لن يعطني شيئا بالدين ، وقراره ساري المفعول اعتبارا من ظهر البارحة ؟.

وانفجرت في المكتب ضحكة عالية انطلقت من غرفة صاحب الجريدة حيث تستلقي سميحة على الكرسي العريض ، وحيث كنت واقفا قريبا منها دون ان اتراني ..

فصاح بها عدنان وهي لا تزال في الداخل : ما هذا يا انسة سميحة . نحن اين وانت اين ؟

ومرت لحظات خرجت سميحة بعدها من الغرفة وعلى وجهها ابتسامة حلوة وقالت بغنج : اوه .. عدنان .. لماذا انت عصبي بهذا الشكل ؟ كيف تقابل انسة ظريفة مثلي بهذه التكشيرة ؟ انك لا تحفظ كلام الفلاسفة رغم ادعائك الثقافة العالية ، والا لامنت بانك لن تستطيع ان تمنع طيور الهموم من التحليق فوق رأسك ولكنك تستطيع ان تمنعها من ان تعشش فيه ..

فرد عدنان : احتفظي بحكمك لنفسك ..

فردت سميحة : لم يبق معي سوى سبع ليرات صدقني ، سأحاول

فقال عارف على الفور : قاسمينا اذن ما في حقيبتك الزرقاء ..

فردت سميحة : لي يبق معي سوى سبع ليرات صدقني ، سأحاول ان اجعلها تكفيني ثلاثة ايام ..

ـ وبعد ذلك ..

ليحدث ما يحدث .. انا لي فلسفة في الحياة غير فلسفة الاستاذ عدنان .. فهو عندما يكون بلا مال يجمد يأس الدنيا كله في برشامة واحدة يبتلعها بدون ماء ، فيحدث بعد ذلك ما يحدث من مضاعفات ومن ضرب الرأس باكثر من جدار ..

فصاح عدنان : هذه اهانة يا انسة سميحة .. اصتبح عليها وارجو ان تسحبيها . فردت : ولكنك انت الذي جعلتني لا اهتم كثيرا عندما اطلق بحقك مثل هذه الاهانة ..

ـ انا ؟ .

ـ نعم .. انت .. انت الذي جعلت قلمك مأجورا لصاحب الجريدة ولكن بدون ثمن .. انت كتبت له كل المقالات التي مدح فيها من دفع له ، وشتم من امسك عنه يده ، دون ان تأخذ نصيبك من الغنيمة ..

انت تدعي المثالية والنزاهة وتبرر عدم رفضك ما يطلب اليك كتابته بانك مضطر لان تعيش .. ولهذا اقول لك : عليك الان ان تتحمل تبعات مثاليتك العجيبة هذه ..

صمت عدنان ولم ينبس .. اما عارف فقد قال : دعونا من هذا الكلام ، فهذه حالة كل المحررين في هذا البلد . علينا الان ان نفكر بطريقة نتدبر بها ثمن الورق وأجرة المطبعة ونصدر الجريدة .. نحن مسؤولون عن احتجابها . فردت سميحة : لسنا مسؤولين امام صاحب الجريدة ما دام قد سافر وتجاهل ان لنا معاشات يجب ان نقبضها وان للجريدة نفقات يجب ان تؤدى . وقال عدنان : ولكننا مسؤولون امام القراء .. فالجريدة ملك القراء وليست ملكنا او ملك صاحبها . سأرهن انا خاتم زواجي وساعتي ..

ومرت لحظات قالت بعدها سميحة : وانا سأرهن ساعتي ..

وقال عارف : ليس لدى شيء ارهنه .. سأعمل في المطبعة بدل عاملين ونوفر اجرتهما .. وقال محمد الصبي الصغير : لدي عشرليرات وفرتها في حصالة ، وانا مستعد لان اقدمها بدوري ..

اما انا فقد بكيت يا سيدي .. اثارني المنظر ، منظر هؤلاء الشباب الطيبين الذين يتلاعب بقدراتهم ومستقبلهم ومواهبهم صاحب الجريدة الجشع الذي يبيع كرامته بالمال .. واستبشرت خيرا بالمستقبل مستقبل هؤلاء الشباب .. وعدت احمل اليك الخبر اليقين ..

وقال نوح : انت ذكي وخبيث يا غراب ..

ـ الم يكن من الافضل لو حذفت النعت الثاني ؟ .

ـ هل ستعلمني اصول الكلام ؟ انا ادرى الناس بك ..

ـ لو كنت ادرى الناس بي لنزعت عني اسمي الكريه ، ولاطلقت علي الاسم الذي طالما تمنيت ان تناديني به .

ـ ولكنك لم تأتني بالاخبار السارة .. لقد اطلقتك مع الشمس الاولى ، فأدعيت انها شمس شريرة .. ثم اطلقتك مع الثانية والثالثة وكنت لا تحمل الي في كل مرة الا الاخبار التي لاتسر الخاطر .. فكيف تريدني ان ادعوك بشيرا .. اذهب الى مكانك .. انك ستظل غرابا ، وستظل بشير سوء .

وطار غراب ثم حط على حافة الدن الخشبي من جديد وهو يخاطب نفسه خطابه التقليدي الخالد : كم انا حزين .. ان نوحا وزوجته وكل من في السفينة .. كل هؤلاء يبخلون علي بالاسم الذي اتمناه .. قلت لهم انني مستعد لان اتخلى عن طعامي عدة ايام في سبيل ان يطلقوا علي اسم بشير كما اطلقوا على الحمامة اسم بشيرة،ولكن واحدا منهم لم يحقق امنيتي .. صحيح ان نوحا يقول لي انك بشير .. ولكنه يتبع الكلمة ـ كما فعل هذه الليلة ايضا بكلمة اخرى فاذا بشير تصبح (بشير سوء) . اه .. انا حزين ..

***

الشمس الرابعة بدأت بالظهور . ونوح لا يزال نائما ... طار غراب من مكانه وحط قرب فراش سيده ، وبدأ يوقظه برفق ، فهب نوح مذعورا ، وما ان راى غرابا امامه حتى صاح به : ليلعنك الله .. ليلعن هذا الصباح .. سيكون يومي كله مشؤوما لانني فتحت عيني على منظرك الكريه .. ماذا تريد !.

ـ انها الشمس الرابعة يا سيدي .. بدأت تظهر . وقلبي يحدثني ان هذه الشمس مباركة فهلا اطلقتني يا سيدي لاتيك باخبار الوطن ؟.

ـ لا .. لن تذهب انت .. فانت لا تحمل سوى اخبار السوء . وصاح نوح : بشيرة ..تعالي يا بشيرة ! .

وجاءت الحمامة خفيفة ، نظيفة ، نشيطة .. وقالت بهديل عذب : امر سيدي

ـ سأطلقك الى ارض الوطن الان لتحملي الي اخباره .. انا انتظر اخباره السارة لاغادر هذه السفينة اللعينة اليه .. وعليك ان تعودي قبل المغيب ..

ـ امر سيدي ..

وطارت الحمامة .. وفتحت خشب الكوة ببراعة وخفة . ثم انسلت منها الى الجو الرهيب ..

وصاح نوح بغراب : عد الى مكانك الان .. هيا ..

فعاد غراب الى الدن يخاطب نفسه خطابه التقليدي الخالد وهو يتمتم : كم انا حزين .. كم انا متألم ..

***

بدأت الشمس تميل الى خط الهاجرة عندما وقف نوح في ارض السفينة قرب الكوة ، ووقفت خلفه زوجه ثم بقية سكان السفينة وبينهم غراب .. ومرت لحظات بدا بعدها منقار بشيرة من الكوة يحمل غصن زيتون أخضر .. فأدرك الجميع ان ذلك شارة الاخبار السارة .. ودخلت الحمامة تعلن للجميع : الوطن بخير .. لقد اشرقت فيه شمس جديدة ، وارضه تروى الان من الفرات والنيل معا . اما السرجان الفرنسي فقد ولى مع انتداب دولته الى الابد .. وكشف المسيحيون المؤامرة التي كان يدبرها السرجان ..

وفي البادية انقلاب جديد .. لم يعد الشيخ الها قادرا ، لم يعد يستطيع ان ياخذ اكثر المحصول من فلاحي قبيلته العاملين .. اصبحت الارض ملكا لهؤلاء الفلاحين .. اما الفلق فقد كسر ، والقيت عيدانه طعاما للنار .. وابنة الشيخ الصغرى ، اخت رابعة ، زفت الى فلاح فقير من افراد القبيلة ..

وفي العاصمة انقلاب اخر .. الصحفي الذي ذهب ليبيع ضميره في ايران كشفت اوراقه ، وكفت يده عن العمل .. والمحررون تنفسوا الصعداء ، وبدأوا يعملون بكرامة .. وهناك اخبار أخرى كثيرة سارة عن الوطن ، سأقصها عليكم في سهرة هذه الليلة ..

وقال نوح : مرحي يا بشيرة . مرحي لاخبارك الطيبة .. انناممذ الغد سنغادر هذه السفينة الى ارض الوطن .. فقدراتنا يجبان نفجرها خيرا له عميقا ... سنشعر بكرامتنا فيه وبعزنا .. لن نكون مأجورين ولا اذلاء .. مرحى .. مرحى لاخبارك يا بشيرة . سنستمع هذه الليلة ، بشوق زائد الى اخبار الوطن المفرحة .

فردت بشيرة : ولكن هناك امرا يا سيدي نوح ينغص فرحتي .. فقال نوح متسائلا : وما هو ؟

ـ هل تعدني بتنفيذ رغبتي ؟

ـ اذا كنت قادرا على ذلك ..

ـ ارجو ان تعلن على سكان السفينة ، بأن اسم غراب قد اختفى عنه الى الابد ، وان اسمه الجديد هو بشير ..

ـ ولكنه بشير الـ ...

ـ لا تكمل كلامك يا سيدي .. يجب ان يكون اسمه (بشير) وكفى هل تعدني بهذا ؟

ـ اعدك ..

وانتقل الى ركاب السفينة يقول : ليكن معلوما لديكم ، ان الاسم الجديد لغراب هو بشير ..

وتقدمت الحمامة من بشير تقول : هل انت سعيد ؟

فأجاب والدموع تغسل عينيه : انا سعيد جدا وانت كريمة يا بشيرة . ساكون مدينا لك بسعادتي كل ايام عمري ، وسأستمع الى حديثك هذه الليلة بشغف .

***

وعندما انصرف كل فرد من ركاب السفينة الى شأنه ليستعد لسهرة المساء الحافلة ، طار بشير وحط على طرف شباك عريض يطل على الغرب ، وراح يتأمل قرص الشمس يغيب شيئا فشيئا خلف الافق وهو يخاطب نفسه : هذه الشمس الرابعة كانت كريمة لعلها بداية طيبة لشموس اخرى كريمة مثلها .. اما الشموس الثلاث الماضيات فكن شريرات ، مثل زوجة نوح الحيزبون قبل ان تنتصر لانسانيتي . اذن لتلعن الشموس الثلاث الاولى ، الف مرة ومرة ..

جان الكسان
دمشق
من (جمعية الادباء العرب)